الحرب الليبية - الأمريكية
1805 - 1801

علي تابليت
معهد الترجمة

سنتطرق في هذه الورقة الى أسباب الحرب الليبية - الأمريكية التي عرفت باسم - حرب طرابلس - في الوثائق الأمريكية وذلك من خلال مواد المعاهدة المبرمة بين البلدين سنة 1796 والتي نستخرج منها أسباب هذه الحرب التي حملها المؤرخون الأمريكيون لليبيا وحدها ، دون عرض للأسباب الموضوعية لها ، حيث اعتبروا طرابلس الطرف المسؤول عن هذه الحرب . واتهمت أولا ، بنقض الاتفاقات الدولية ، وثانيا بالقرصنة التي لم تكن خاصة بليبيا وحدها ، بل مارستها ونشطتها دول أوروبية بحرية منها نابولي ، اليونان ، صقلية ، جنوة ومالطا . إذ سادت هذه الصورة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كما أن تاريخ طرابلس وبقية البلدان المغاربية لم يعرف اهتماما جديا من مواطنيه للرد على الأسطورة المزعومة والتي أصبحت مقبولة كحقيقة تاريخية ، ومن هنا فان هدف هذا المقال هو معرفة صحة الرأي الأمريكي من خلال وثائق أمريكية رسمية .

ولدراسة الوسائل المتصلة بالنزاع المسلح الليبي - الأمريكي في الفترة الممتدة ما بين 1801 - 1805 ، لابد من الرجوع الى العلاقات الدبلوماسية والبحرية الموجودة بين الدول المغاربية والأوروبية في ذلك الوقت .

فالدول الأوروبية ، كانت تستعمل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي في تجارتها مع هذه البلدان خاصة منها الجزائر ، أو مع بلدان الشرق الأوسط ، لهذا كان لزاما عليها أن تدفع للدول الأولى مبلغا ماليا يعرف باسم الجزية السنوية . متفقا عليه لضمان سلامة السفن وحمولتها وبحاريها ومسافريها ، ويتم هذا عن طريق ابرام معاهدة يقدم فيها الطرف الأوروبي مبلغا ماليا

أيضا ، كما تقدم هدايا عند تغيير الحكومة في كل من البلدين المتعاقدين أو عند تعيين قنصل جديد أو تغييره ، وعرفت هذه الأخيرة - بالهدايا القنصلية - يتم جزء منها في شكل نقدي وآخر في شكل عتاد بحري أو عسكري ، وان فشلت هذه الدولة في اقامة مثل هذه المعاهدة مع أي من البلدان المغاربية ، أو لم تف بما نصت عليه المعاهدة فان هذه الدولة تفقد صداقتها مع البلد المغربي المعنى بالأمر . وبالتالي تخضع تجارتها في المتوسط الى عقوبة تتمثل في أسر سفنها .

وقد ساد هذا النموذج من العلاقات كما ذكرنا آنفا ، وعليه فان يوسف القرمنلي لم يغير من هذه العلاقة بين بلده وأمريكا ، عندما وصل الى الحكم عن طريق انقلاب ضد أخيه أحمد في نهاية سنة 1794 .

وقد حكمت الأسرة القرمنلية حسب المؤرخين المسلمين ، ابن خلدون وأحمد باي النايب ابتداء من يوم الأربعاء 13 جمادى الثانية 1123هـ الموافق لـ 23 جويلية 1711م الى سنة 1835م وتوالى على الحكم[1] .

1 - أحمد باشا I 1741 - 1745 مات في طرابلي .

2 - محمد باشا 1745 - 1754 مات في طرابلس .

3 - علي باشا I 1754 - 1793 مات في طرابلس .

4 - حسان باشا أغتيل سنة 1790 .

5 - أحمد باشا II 1794 سنة واحدة مات في القاهرة في فقر مدقع .

6 -يوسف باشا 1795 - 1832 مات في طرابلس .

7 - علي باشا II 1832 - 1835 مات في القسطنطينية خصصت له منحة سنوية 15.000 ليرة .

8 - محمد بن أحمد الثاني مات في مصر .

9 - أحمد بن يوسف مات في الجزائر سنة 1851 .

10 - مصطفى

11 - عثمان ، ماتوا جميعا في وقت متقارب .

12 - علي .

13 - ابراهيم

14 - حسونة عاش في طرابلس .

15 - سليمان عاش في طرابلس .

16 - ابراهيم مات دفاعا عن تركيا .

17 ـــ !

أما الإناث من أسرة القرمنليين فلم نجد شيئا عنهن .

عرفت العائلة تأييدا معنويا وسياسيا من الأهالي في البداية نظرا للتعسف الذي كانت

تمارسه السلطات العثمانية ضدهم وعدم اشراكهم في الحكم واثقال كاهلهم بالضرائب ، لكنه سرعان ما انفك هذا الرباط يتلاشى بين الأهالي والقرمنليين ، نظرا للثورات الداخلية التي أزدادت وطال أمدها خاصة في عهد يوسف باشا ، التي دامت 13 سنة في مناطق غريان وغدامس وأولاد سليمان وسيرتا ، تحت قيادة الحاج آغا الخزندار وكذلك الشيخ عبد الأنافي في سنوات 1803 ، 1804 و 1810 .

وهنا لابد من ذكر عدد القوات البحرية الليبية في مرحلتين مختلفتين لنعرف مدى قوة هذا البلد فالى غاية 14 ديسمبر 1799 كانت كما يلي : [2] .

- سفينة بريطانية الصنع ذات 32 مدفا .
- سفينة بيتسي ، غنيمة أمريكية 26 مدفعا .
- سفينة بريطانية غنيمة 16 مدفعا .
- سفينة يونانية غنيمة 16 مدفعا .
- سفينة بولاك غنيمة من مالطة 16 مدفعا .
- سفينة ثلاثية الصواري غنيمة من نابولي 10 مدافع .
- سفينة ثلاثية الصواري غنيمة من جنوة 10 مدافع .
- سفينة بولاك غنيمة من روما 10 مدافع .
- سفينة شراعية 04 مدافع .
- مركب حربي 01 مدفع .

مجموع القوات البحرية لطرابلس = 141 مدفعا .

أما في 14 أوت 1800 فكانت القوات البحرية لطرابلس تتمثل في 12 مركب حربي بمجموع 150 مدفعا ، وبالتفصيل فاننا نجد أن هناك سفنا تتكون كما يلي : [3] .

1 – 32 مدفعا .
1 – 28 مدفعا .
2 – 36 مدفعا .
1 – 18 مدفعا .
1 – 10 مدافع .
1 – 18 مدفعا .
1 – 04 مدافع .
2 – 02 مدافع .
2 – 02 مدافع .

12 سفينة 150 مدفعاً .

وفي هذه السنة تبدأ سحب غير ممطرة في العلاقات الليبية - الأمريكية والتي تسبب فيها الى حـد كبير جميس لينـدر كاثكارت James Leander Cathcart القنصـل الأمريكي الأول لـدى طرابلس ، والذي دبر انقلاب سياسي مع ويليـام ايتون Wm Eaton وبـالتنسيق مع أحمد بـاشا المخلوع ، الـذي استقر بتونس ووجـد مسـاعـدة من بـاي تونس وهنـا بـدأت المؤامرة الأمريكيـة خيوطها من تونس مرورا بمالطة الى واشنطن .

وبعث وليام ايتون برسالة الى كاتب الدولة للخارجية Pickering يطلب منه ارسال فرقاطـة وألف بحار لاستخدامهم ضد طرابلس . كما بعث يوسف باشا في أكتوبر 1800 ، رسـالـة الى كاتب الدولة يطلب فيها تجديد المعاهدة ورفع قيمـة الجزيـة السنويـة ، ورد طومـاس جيفرسون ، على هذا الطلب بارسـال قوة بحريـة تحت قيـادة الكومنـدور ريتشـارد دال Richard Dale وهو أول ملازم يعمل بأوامر جون بول جونس John Paul Jones مؤسس البحرية الأمريكية .

وهنـا نـلاحـظ أن السفير الأمريكي بلنـدن ، السيـد رافس كينـق Rufus King اتهم القنصـل البريطاني في طرابلس ماك دونو Mc Donough بتحريض طرابلس ضد أمريكا ، وهذا في رسالة له الى وزير الخارجية البريطانيـة السيـد بلهـام Delham بتـاريخ 28 فيفري 1801 ، ورد عليـه بلهام بنفي التهمة في 5 ديسمبر 1801 .

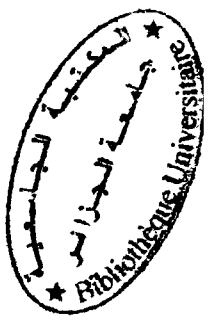

أبحر دال من نورفوك Norfolk في 2 جويلة 1801 ، بثلاث فرقـاطـات وشونر ، ومعـه أوامر من جيفرسون ، بغرق وحرق وتحطيم سفن العدو حيث وجدها[4] .

ولمـا وصل دال جبـل طـارق[5] في 1 جـويليـة 1801 علم من مصـادر أمريكيـة أن طرابلس أعلنت الحرب على أمريكا ولِحَظِّـهِ التقى بسفينتين تـابعتين لطرابلس ،وهمـا مشهـودة Meshuda وهي سفينة أمريكية في الأصل ، أسمها بيتسي Betsey استولى عليها مراد رايس ، قائد البحريـة الليبية ، وسفينة أخرى من صنع سويدي ، ذات 16 ، مدفعا . أمـا الأولى فتحمل 26 مـدفعـا ، وقعت الأولى في قبضة دال في جبل طارق ، بعـد أن هجرهـا ملاحوهـا الـذين لجـأوا الى المغرب وسافر قائد السفينتين مرادرايس في سفينة بريطانية الى مـالطـا ومنهـا طرابلس ، أمـا الملاحون الباقون وعددهم 260 سلكوا طريق البر من المغرب حتى وهران ، بعدهـا سـافروا بحرا في سفينـة جزائرية نحو طرابلس ، اذ بعث داي الجزائر (مصطفى باشا) برسالة الي جيفرسون في هذا الشأن عن طريق القنصل العـام الأمريكي بـالجـزائر ريتشـارد أوبريـان Richard Obrien في 26 سبتمبر 1801 ، وبمجرد اعلان الحرب بين طرابلس وواشنطن ، سارع يوسف باشا بارسال وفـد عنـه الى عواصم البلدان المغاربية لشرح موقف بلاده من الأزمة مع أمريكا ، ولم تبخل هذه البلدان بالدعم والمساندة لأن مصيرها واحد فسـارعت المغرب والجزائر وتونس بمـد يـد العون المـادي والعسكري الى ليبيـا ، وأرسلت المواد الغـذائيـة والـذخيرة الحربيـة ، التي تتمثل في السمـك الجـاف والفواكـه والصابون والكلس والقمح والزيت .

وأعلن ملك المغرب في مناسبات عديدة وعلانية عن عدم موافقته على حصار طرابلس في 1802 ، 1084 و 1805 وهدد أمريكا بالحرب ، وأكد حقه في ارسال أي مساعدة تطلبها طرابس . ولم يجد الأمريكان الا موافقتهم لمطالب الملك ، خوفا من الحرب وقطع العلاقات بين البلدين وبالتالي تصبح تجارة أمريكا في جبل طارق تحت رحمة المغرب ، وقام كاتب الدولة للبحرية في هذه الفترة بتقديم مشروع الى الكونجرس يقضي ببناء 4 سفن حربية لاستعمالها ضد طرابلس في بداية 1803 ، ووافق الكونجرس على المشروع بسرعة في 28 فيفري 1803 ، لتكون تكاليف هذه السفن الأربعة من نوع 12 مدفعا لكل واحدة بـ 96.000 دولارا[6] .

وهـــذه أسماء السفن : أرقس Argus ، سيرن Siren ، ونـوتلس Nautls ، وريكس Rixen ، وغادرت الثالثة ميناءها نحو طرابلس في 18 جويلية 1803[7] أما الأولى فاقلعت هي الأخرى في سبتمبر 1803 .

وأمام هذا الاعتداء السافر على سيادة طرابلس ، دعم يوسف باشا قواته بتجنيد 15.00 جندي من آسيا الصغرى ، ورفع من عدد فرسان العرب ليصل عددهم 12.000 كجيش اضافي الى جانب قوات احتياطية بلغ عددها 30.000 من المشاة و 20.000 من الفرسان وحصنت المدينة بتحصينات جديدة ، وتهيأ سكان طرابلس للدفاع عن مدينتهم ضد الحصار الأمريكي .

بعد هذا المشوار الطويل في معرفة استعداد كل طرف ، نعود قليلا الى الوراء وبالضبط الى سنة 1795 ، أنه بعد عقد معاهدة سلام بين الجزائر والولايات المتحدة ، وجه الداي حسان باشا ، داي الجزائر ، سؤالا الى القنصل الأمريكي الأول بالجزائر ، السيد جويل بارلو Joél Barlow . كاتب وأديب وسياسي وتاجر ، عاش في باريس ما يزيد عن 15 سنة كان يجيد الفرنسة والايطالية والألمانية . له مجموعة كتب أدبية وسياسية ، شارك في اعداد وثيقة حقوق الانسان ، أيضا في الدستور الفرنسي ، خاصة فيما يتعلق بفصل الدين عن الدولة ، منحت له الجنسية الفرنسية ، سفيرا لبلاده في باريس في 1811 – 1812 ، يعد نابغة عصره في الثورة الأمريكية – عما اذا كان يرغب شيئا ما . فرد بارلو على الداي ، أنه يرغب أن يتوسط لدى تونس وطرابلس لابرام معاهدات سلام معهما . ومده بالمال اللازم للمعاهدتين نظرا للضيق المالي الذي كانت تعيشه أمريكا ، فوافق الداي على طلبه .

ووقع أول اتصال واعتراف بين البلدين سنة 1796 . إذ اعترفت طرابلس بالولايات المتحدة كدولة مستقلة ذات سيادة وغير خاضعة لبريطانيا ، وقع المعاهدة عن جانب طرابلس يوسف باشاباي طرابلس وعن الجانب الأمريكي القنصل العام الأمريكي بالجزائر ، جويل بارلو مع توقيع الدي حسان كضامن للمعاهدة ووسيط بين البلدين ، برضا الطرفين ، وبعد التوقيع كان لابد من دفع مبلغ مالي وهدايا . وبما أن القنصل لا يملك هذا المبلغ التجأ الى الداي الذي أقرضه 40.000 دولار بدون فائدة ، وعادة كان بارلو [8] يأخذ القروض من دار بوجناح

وبكرى ، وهما عائلتان يهوديتان قدمتا الى الجزائر من ليفورن[9] ، الأولى قدمت في 1723 ، والثانية 1770 ، وأسستا شركة تجاريةكانت تصدر حمولة 170 سفينة محملة بالقمح والشعير والصوف والجلود والزيت بقيمة تزيد عن 2500.000 دولار وهذا حسبما أورده القنصل الأمريكي أوبريان[10] . وكان لهم ممثلين تجاريين في قرطاجنة ، ومرسيليا ، جنوة ، ليفرون ، نابولي ، إزمير ، الأسكندرية وتونس ... الخ . وكانوا وسطاء في فدية الأسرى الأوروبيين . ويستعملون كل الطرق للحصول على مبالغ مالية ضخمة من القناصل لفدية مواطنيهم وقد أشار الى ذلك أحد اليهود وهو قنصل أمريكي بتونس مردخاي نوح Mordecai M.Noah عندما حذر Keene سنة 1813 الذي كان ينوي فدية الأسرى الأمريكان في الجزائر[11] .

ويقوم هؤلاء اليهود بأدوار أخرى ، مقابل آلاف الدولارات ، في حل النزاعات بين البلدان المغاربية والأوربية كالجزائر وبريطانيا (1800) ويستقبلون القناصل باسم الداي ، كما حصل مع السويد والدانمارك وهولندا (1801) ويرأسون المفاوضات ، الجزائر والبرتغال (1803) .

وقد كتب القنصل الفرنسي ديفوز Devoize ، بتونس الى تاليراند Tallyrand ، أثناء اعلان الداي مصطفى الحرب على فرنسا سنة 1798 ، بسبب حملة نابليون على مصر ، والملاحظ هنا أن البلدان المغاربية كانت ولا تزال من قديم الزمان تؤازر وتدعم بالمال والنفس شقيقاتها بالشرق وليس جديدا في تقاليد هذه البلدان ، وانما نفضل الصمت على التهريج .

وهذا جز مما ورد في مراسلة القنصل : «Si le directoire exécutif se détermine à suspendre son ressentiment pour faire une paix plâtrée avec Alger, il n'a besoin que de l'interventin secrète de Bacris. Ces Juifs ont une grande influence sur les affaires de cette Régence par le crédit dont ils jouissent auprès des ministres du Dey intéressés dans leurs spéculations.»[12] .

وقد استولى قائد البحرية الليبية مراد رايس عشية ابرام المعاهدة بين البلدين على سفينتين أمريكيتين في شهر أوت 1796 هما «صوفيا» و «بيتسي» ، أطلق سراح الأولى بعد وصولها طرابلس ، عندما علمت طرابلس أن السفينة كانت متجهة للجزائر أما الثانية فقد أصبحت في قائمة الغنائم وأضحى طاقمها أسرى حرب .

ومن أجل اطلاق سراح الأسرى واقامة علاقة تعاهدية مع طرابلس لضمان تجارتها في البحر المتوسط ، قررت أمريكا الدخول في مفاوضات مع طرابلس ، غير أنها لا تملك سلاح المفاوضات ، عندها التجأت الى مساعدة مالية وسياسية من داي الجزائر[12] ، وبدأت المفاوضات بين الطرفين في بداية نوفمبر 1796 ، وقدم لباشا طرابلس مبلغ 40.000 دولار مقابل ابرام معاهدة سلام وصداقة ، غير أن الباشا رفض المبلغ باعتباره أقل من الذي قدم للجزائر 642.500 دولار وتونس 107.000 دولار ووعد أوبريان[14] الباشا بهدية قنصلية وسفينة ، ذلك أن هدية سفينة الهلال للجزائر سنة 1795 أثارت مشاكل عند جيرانها تونس وليبيا ، لذلك طالب الباشا

من المفاوض الأمريكي تقديم سفينة كهدية ، مثل الجزائر ، غير أن كاثرات القنصل المرتقب ذكر فيما بعد أنه قدم للباشا 10.000 دولار مقابل العتاد البحري و 80.000 دولار تعويضا عن السفينة كهدية .

وقعت المعاهدة بين البلدين في 4 نوفمبر 1796 ، حسب المبلغ المذكور سابقا ، مع الهدية القنصلية وقيمتها 12.000 دولار نقدا وبعضا من العتاد البحري ، مثل قماش القنب (لصناعة الأشرعة) وألواح خشبية وقار ....الخ[15] .

مع العلم أن المعاهدة تحتوي على 12 مادة خصصت المادتين الأولى والثانية عشر بطلب من أمريكا وطرابلس ، أن يكون حسان باشا داي الجزائر ، صديقا للطرفين ، وحكما بينهما في حالة نشوب نزاع أو حدوث خلاف بينهما لتكون كلمته فصلا بينهما . وحررت المعاهدة باللغة العربية ثم ترجمت الى الانجليزية والايطالية وان كانت الأخيرة لم تصل كتابة الدولة للخارجية .

ولا بأس من نسخ هاتين المادتين كما وردتا باللغة العربية (لغة المعاهدة) بعد حين ، وتعني المادتين بالنسبة لباشا طرابلس تحكيم صديق الطرفين ، أما بالنسبة لأمريكا فيعني أن طرابلس تابعة للجزائر ، بالاضافة الى ذلك أكد مبعوث الباشا ، سيدي أحمد قائد البحرية الليبية ، سنة 1797 ، أن أوبريان أكد له باعتباره القنصل العام الأمريكي مستقبلا للبلدان المغاربية والذي ستكون اقامته بالجزائر أن جميع صفقات واتفاقات القنصل الأمريكي بطرابلس مستقبلا ، ستخضع لإرادته السياسية حسبما نص عليه الكونجرس الأمريكي . ويعني هذا بالنسبة لباشا طرابلس وأعضاء ديوانه (الذي تأسس سنة 1762 على غرار ديوان الجزائر ، وان كان أقل منه عددا ونفوذا ولم يعمر طويلا) أن الأمريكيين ينظرون الى طرابلس أنها تابعة للجزائر ما دام التمثيل القنصلي الأمريكي في طرابلس يخضع لرقابة وتوجيه القنصل العام الأمريكي بالجزائر .

وهذا نص المادتين المشار إليهما أعلاه :

المادة 1 : «الحمد لله بيان الشرط الأول

على أنه اتفقنا صلحا تاما صحيحا دائما بالدوام لا تبديل فيه ولا تغيير أولا وآخرا على الدوام مع المركان ومع سيدنا المحترم يوسف باشا بمحروسة طرابلس أيده الله وديوانه كذلك والذي فعلناه بيننا بقلب صاف من جانبنا ومن جانبهم وهذا الصلح مفضوض ومفصل على يد سيدنا ومولانا المحترم المعظم مولانا الدولاتني السيد حسن باشا بمحمية الجزائر أيده الله آمين» .

المادة 12 : «فحين يكون تخليط بيننا من جهتين وتكون خصومة كبيرة ويكون القونصل المركان لا يقدر يصفي أمره ويبقي الأمر متوقف من بين اثنين ما بين الباشا طرابلس أيده الله والمركان حتى يعلم السيد حسن باشا أيده الله بمحروسة الجزائر فاننا قابلين بما شرط علينا واننّا موافقين على شروطه وطابعه فالله يجعلها محبة على الدوام وعافية خير بيننا أولا وآخرا بمنه وكرمه آمين .

هذا طابع السيد المحترم حسن باشا أيد الله بولاية الجزائر دار الجهاد المنصورة بعون الله فهو مرسوم ومكتوب في هذا ... أول شهر رجب كان في أوله أربعة أيام سنة 1211هـ» .

وفي رسالة من باشا طرابلس الى الرئيس الأمريكي بتاريخ 25 ماي 1800 . جاء فيها بالخصوص ما يلي «ان قنصلكم المقيم في مملكتنا ، وخادمكم قد أخبرنا باسمكم ، أنكم راسلتموه وأخبرتموه بأنكم تنظرون الى أيالة طرابلس بنفس النظرة التي تنظرونها للأيالات المغاربية الأخرى وأن لها نفس المكانة من حيث الصداقة والأهمية ....»[16] .

أما عن حكاية القنصل العام الأمريكي بالجزائر ، فقد أشار اليها الرئيس الأمريكي في مناسبات ومراسلات عديدة نظرا لأهميتها ، لذلك وافق الكونجرس على أن يكون مقر القنصلية العامة الأمريكية في البلدان المغاربية بالجزائر نظرا لأهميتها . وحدد رواتب القناصل في المغرب وتونس وليبيا بـ 2.000 دولار سنويا مقابل 4.500 دولار للقنصل العام بالجزائر . وحدد الباشا موقفه ازاء أمريكا في لقائه مع السيد أنقرام Ingram المكلف بالشؤون القنصلية الأمريكية بطرابلس سنة 1798 ، قبل وصول قنصلها ، بأنه على أمريكا أن تتعامل مع طرابلس كدولة ذات سيادة ، وهذا حفاظا على العلاقة الطيبة الموجودة بين الطرفين ، كما أكد الباشا موقفه من جديد عندما حل جيمس لينـدر كاثكارت القنصل الأمريكي سنة 1799 ، (والذي كان أسيرا بالجزائر ما بين 1785 – 1796) بقوله : «بأنه أمير مستقل لا يمكن تهديده بالجزائر ، بل حتى الباب العالي .... وأنه يسير مملكته مثلما يسير داي الجزائر مملكته ، وبقي الباشا مدافعا عن موقفه هذا في حين احتفظ الأمريكيون بوجهة نظرهم تجاه طرابلس الى غاية 1801 ، حين اندلعت الحرب بين البلدين ، والمعروفة بحرب طرابلس .

وهنا يمكن تلخيص أسباب هذه الحرب .

فنرى طرابلس تطالب أمريكا بالاعتراف الكامل باستقلالها السياسي ، وتنفيذاً لما جاء في معاهدة 1796 والتي تماطلت أمريكا في العمل بها .

أما الرواية الأمريكية فتذكر أن أسباب الحرب واضحة ، وهذا حسب المصادر الأمريكية المنشورة . والتي ترجع هذه الأسباب الى القرصنة لذلك صممت أمريكا القضاء عليها ، غير أن طرابلس تخالف هذا الرأي ، وتؤكد أن ما أدى بأمريكا الى اعلان الحرب عليها هو فشلها في تقييم العلاقات السياسية الليبية – الجزائرية علاوة أن أمريكا لم تستطع أن تقدم دليلا على اتهام طرابلس بالقرصنة لكن الوثائق التي بين أيدينا ، وهي أمريكية تشير أن طرابلس استولت على سفينة تجارية أمريكية قبيل اندلاع الحرب بينهما ، وتضيف نفس المصادر أن الباشا أمر باطلاق السفينة (صوفيا) بل ذهب الى أبعد من ذلك ، فعاقب الضابط المسؤول عن ذلك ، وبصرف النظر عن القرصنة فان ذات المصادر نسبت سبب الحرب الى أدعاء ضعيف وهو أن الدول المغاربية لا تلتزم بالاتفاقات الدولية .

وهنا نذكر على سبيل المثال ، رأي المؤرخ الدبلوماسي الأمريكي Bemis S.F في كتابه التاريخ الدبلوماسي الأمريكي «A Diplomatic History of the U.S» .

«The Treaties With Algier, Tripoli and Tunis Were destined To be Observed By Those Potentates, Only as longs it seemed Coveni ent...»[17] .

والمختص في تاريخ المعاهدات الدولية يرى عكس ما يراه بميس وهذا يظهر جليا أن أمريكا هي التي أخفقت في التزاماتها الدولية مع البلدان المغاربية ابتداء من الجزائر سنة 1795 حيث لم تنفذ مواد المعاهدة وتأخرت في دفع ما لها من ديون للجزائر .

أما الموقف الرسمي في طرابلس فيبدو فيما أكده الباشا مرارا أن أمريكا لم تلتزم بروح المعاهدة ، وأنه بعد مرور سنتين لم تتلق طرابلس الهدايا وتعجب عن عدم دفع أمريكا ما تبقى عليها من دين قيمته 6.000 دولار ولا القنصل ، الذي نصت عليه المادة العاشرة ولا السفينة التي وعد بها المفاوض الأمريكي ، وللرد على هذه التساؤلات ، راسل الباشا القنصل العام الأمريكي بالجزائر ، في شهر سبتمبر 1798 ، يطلب منه دفع مبلغ المعاهدة المستحق ، إذ كتب الباشا قائلا : «انني متحير في معرفة السبب الذي أدى بالأمة الأمريكية الى الاهمال الطويل بطرابلس ... منذ عقد سلامنا»[18] .

ورد أوبريان هذا الاهمال الى شدة قساوة الشتاء بأمريكا .

ونتيجة لهذا التأخير وعدم التزام أمريكا بما تعهدت به رفض الباشا استقبال جيمس ليندر كاثكارت الذي حل بطرابلس يوم 5 أفريل 1799 ، وصرح بأنه هو القنصل الأمريكي المرتقب ، وسئل من طرف القنصل البريطاني ماك دونو Mac donough .

إن أحضر معه العتاد البحري والعسكري والهدايا القنصلية والسفينة أم لا ؟

كما سأله قائد البحرية سيدي أحمد ، نفس السؤال فأجابها أنه لم يحضر شيئا ، وكان رد فعل الباشا منطقيا عندما ذكر «ان الأمريكيين لم يلتزموا بالاتفاقية لذلك يرى أنه غير ملزم هو الآخر»[19] .

واعترف كاثكارت بمطالب الباشا وسمح له بالنزول برا ، وتفاوض مع الباشا مدة أسبوع على أن يدفع 18.000 دولار كتغطية لتكاليف العتاد البحري والعسكري والسفينة الموعودة ، وقبلت الهدايا القنصلية المقدمة من طرف كاثكارت ، بعدها رفرف العلم الأمريكي بطرابلس يوم 10 أفريل 1799 على الساعة الخامسة مساء وأطلقت 21 طلقة نارية تحية له . لكن بشرط أن تعترف أمريكا بالقرار السياسي الليبي ، ذلك ما جاء في رسالة الباشا الى الرئيس الأمريكي جون أدمز John Adams بتاريخ 15 أفريل 1799 ، «ان تبرهنوا أنكم مستعدون للتعامل معنا مثلما تتعاملون مع الجزائر دون أي تمييز بيننا» .

وأصرت أمريكا على موقفها الأول ، وبادر الباشا بالغاء المادتين 10 ، و 12 من معاهدة 1796 ، وهذا حسب رسالة كاثكارت بتاريخ غرة نوفمبر 1800 ، وطلب كاثكارت من داي الجزائر في

رسالته المؤرخة في 29 أكتوبر 1800 ، التدخل لدى طرابلس للعمل بالمعاهدة باعتباره الضامن فيها ، وسارع الداي بالاتصال بالطرفين ، حيث بعث الداي مصطفى باشا رسالة الى الرئيس الأمريكي طوماس جيفرسون Thomas Jefferson في 26 جمادى الأول 1218هـ الموافق لـ 14 أكتوبر 1803 ، يطلب منه رفع الحصار المضروب على طرابلس ، فرد عليه جيفرسون مشيرا الى الداي أن الجزائر تساعد طرابلس بتقديم الحبوب والمواد الغذائية لها ، ونقل بحاريها الذين هربوا من جبل طارق عن طريق المغرب الى وهران ، اذ نقلوا بحرا بواسطة سفن جزائرية ، وحصل نفس الشيء مع تونس عندما طلبت من القنصل الأمريكي مغادرة تونس ، فبعث باي تونس يطلب المساعدة من الجزائر ، واعتبرت أمريكا هذا تحالفا مغاربيا ضدها ، ووقعت الحوادث الأولى في الاشهر الأربعة الأولى من وصول كاثكارت الى طرابلس اذ أصدر جوازات سفر في أوت 1799 ، سلمها لرياس البحرية الليبية ، هما مراد رايس وعمر رايس ، ضمنها أي كاثكارت شرطا مفاده أنه لاحق لرياس البحرية الليبية متابعة السفن الامريكية التي تحمل علما غير العلم الأمريكي ، واعتبر رياس البحرية الليبية هذا الشرط اهانة كبرى لبلدهما ورفعا الأمر الى الباشا الذي أصر على حذف هذا الشرط الذي لم يرد في مواد المعاهدة ، وشعر الباشا وديوانه أن طرابلس أهينت اهانة كبرى ، وتساءل عما اذا كان بامكان القنصل الأمريكي أن يتجرأ على مثل هذا العمل الذي لا يقبل في الجزائر .

وفي شهر ماي 1800 ، وصلت أخبار الى قصر الباشا مفادها أن أمريكا قدمت هدايا للجزائر . فعلا تلقت الجزائر هدايا ومبلغ مالي معتبر كان دينا على أمريكا للجزائر حملته سفينة جورج واشنطن ، التي أجبرها الداي مصطفى باشا ، بعد انزال الهدايا أن تحملّ بعثة جزائرية الى اسطنبول ، وترفع العلم الجزائري ، بدل العلم الأمريكي ، في سبتمبر 1800 وعلى متن السفينة 131 بحار أمريكي ، بقيادة وليام ينبريدج WM Bainberdge الذي يرأس سفينة فيلا دلفيا في الحرب الليبية – الأمريكية والتي أسرتها البحرية الليبية وهي أكبر سفينة وعلى متنها 307 بحار .

وتعد هذه الحادثة بين الجزائر وأمريكا سببا من أسباب حرب 1815 .

عندها سأل الباشا كاثكارت عما اذا كان الرئيس الأمريكي قد استلم رسالته التي بعث بها منذ سنة ، فأكد كاثكارت استلام الرئيس رسالته ، وان هذا الاخير على استعداد أن يتعامل مع طرابلس مثل بقية البلدان المغاربية ، وللتأكد من هذا بادر الباشا بكتابة رسالة أخرى الى الرئيس الأمريكي في 25 ماي 1800 . ليذكره بأنه اذا «اعتبرتم طرابلس دولة مثل بقية بلدان المغرب ، وعلى قدم المساواة من حيث الصداقة والأهمية ... نأمل أن تتبع مصداقيتهم هذه بأعمال» ولم يأت رد من أمريكا ، عندما وقعت حادثة أخرى ، إذ قام ضباط البحرية الليبية بأسر سفينة أمريكية ، للتعبير عن شعورهم تجاه الديوان ، بأن طرابلس قوة بحرية لابد أن تحترم مثل بقية بلدان المغرب ، وتدخل الباشا مرة أخرى ، وأمر باطلاق السفينة وحمولتها وصرف الضابط

الذي غنم السفينة وبقي الباشا ينتظر الفرصة لاعطاء أمريكا درسا بواسطة قنصلها في طرابلس حتى تحترم طرابلس كدولة ذات سيادة وقوة بحرية يحسب لها حسابها ، وانتظر لتحقيق هذه الفرصة مدة ستة أشهر عله يتغير الموقف الأمريكي وفي غضون ذلك استمر كاثكارت يناشد تدخل الجزائر في العلاقة الليبية - الأمريكية وهذا مايمقته الباشا .

على أن أمريكا لم تعترف بطرابلس كدولة ذات سيادة ، كما عامل الرئيس الأمريكي الباشا بازدراء اذ لم يرد على رسالته منذ سنة عندها اضطرت طرابلس الى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع أمريكا واعلنت الحرب بين البلدين في 14 ماي 1801 واستمرت المناوشات الى غاية 1805 عندها وقعت معاهدة سلام وصداقة بين البلدين في 6 ربيع الأول 1220هـ الموافق لـ 4 جوان 1805 .

وقعها عن الجانب الليبي يوسف القرمنلي ، باشا طرابلس الذي وقع المعاهدة الأولى سنة 1796 وعن الجانب الأمريكي وقعها القنصل العام الأمريكي بالجزائر ، السيد طوبياس لير ، الذي عين مفاوضا خاصا لهذه المعاهدة من طرف الرئيس الأمريكي في رسالة موجهة اليه من مدينة واشنطن يوم 18 نوفمبر 1803 . كما وقع وليام ايتون WM Eaton معاهدة أخرى مع أحمد القرمنلي المخلوع والذي تدعمه أمريكا ، وجميع مواد المعاهدة في صالح أمريكا .

انتهت الحرب الليبية - الأمريكية 1801 - 1805 لصالح طرابلس وذلك باعتراف أمريكا بطرابلس كدولة ذات سيادة وقوة بحرية على ساحل البلدان المغاربية ، وبقاء يوسف القرمنلي حاكما لطرابلس رغم الدعم العسكري الأمريكي لأخيه أحمد ، وبرز تضامن بين بلدان المغرب أمام التحدي الخارجي ، اذ وجدت طرابلس دعما معنويا وماديا من تونس والجزائر والمغرب . وبات واضحا أن سياسة جون آدمز في تقوية البحرية الأمريكية ، ليس من أجل الدفاع عن الولايات المتحدة وانما لكسب مناطق نفوذ جديدة ، وهذا يبين لنا أن أمريكا سبقت فرنسا كقوة استعمارية في البلدان المغاربية بعقدين ونصف .

Footnotes

1. R. Vadala, "Essai sur l'histoire des Karamanlis, Pachas de Tripolitaine de 1714-1835", Revue de l'histoire des colonies françaises, VII (1919), pp.217-19.

2. Naval Doc. I, p.340.

3. Ibid, p. 368.

4. Field James A., America and the Mediterranean world 1776-1882, New Jersey, 1969, p.49.

5. Dupuy Emile, Americains et Barbaresques (1776-1824), Paris, 1910, p. 134.

6. Ibid, p.170.

7. Ibid, p.173.

8. Todd, Charles B., Life and letters of Joël Barlow (N.Y. 1886), p.134.

9. Martin Claude, Les Israélites algériens (Paris, 1936), p.20.

10. Naval Doc. I, p.198.

11. Noah M., Mordecai, Correspondance and documents relative the attempt to negotiate for the release of the American captives at Algiers, wash, 1910, p.85.

12. Plantet, Correspondance des beys de Tunis, III, p.382.

13. F.O. 76/5 : Lucas to Portland, Feb. 4, 1797.

14. D.A.B. O'brien Vol. XIII, p.611-12.

15. A copy of the treaty in the laws of the United States of America, Vol.I, pp.289-291.

16. A.S.P. Vol. XII, p.351.

17. S. Flagg, Bemis : A. Diplomatic History of the U.S (N.Y.1958) p.176.

18. Naval. Doc. I p.255-6.

19. Ibid, p.307.